

التزعة الحكيمة في الشعر الجاهلي

غلامرضا كريمي فرد^١، أميد جهان بخت ليلي^٢

تاريخ الوصول: ١٤٣٠/٩/١

تاريخ القبول: ١٤٣١/٥/٦

وردت الحكمة في الذكر الحكيم في عشرين آية من آياته الكريمة مُشاراً إليها بأنها فضل الله و منته يوتيها من يشاء من عباده ... و ما أعظم الحكمة حين تخرج من الشاعر الذي يجمع بين ملكة الشعر و بين نعمة الإيمان فحينئذ لشعره أثر السحر.

و الحكمة كما قال الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم) ضالة المؤمن ؛ أما دراستنا هذه حول «الحكمة في الأدب الجاهلي» تدور حول ما جادت به قريحة الشعراء من الأشعار في مضمار الحكمة و فضائل أهل الجاهلية و مثلهم العليا، كما اعترفنا فيها بمثالب العصر الجاهلي و بما اتصف به أهل الجاهلية من السفه والغلظة والإنقياد وراء الأهواء و مشيرين إلى أن الحكمة آنذاك كانت وليدة التجربة المفيدة و البصيرة المستنيرة و الخيال الصافي و الصورة المنتزعة بما يحيط بالشعراء مع سهولة المعنى و جزالة اللفظ و متانة السبك.

الكلمات الرئيسية: الحكمة، الحلم، الصبر، الحزم، القسوة، المداراة، التزعة الإنسانية.

١. أستاذ مساعد بجامعة الشهيد تشرمان في الأهواز

٢. طالب في مرحلة الدكتوراه بجامعة الشهيد تشرمان في الأهواز

المقدِّمة

العلم هو المعرفة و الإطلاع عن كنه و أسرار ما تجبُ معرفته و الحكمة هي أن توضع المعلومات في مكانها ومقامها المناسب ، و كل حكيم عالم ، و ليس كل عالم حكيماً ، و الحكمة في الشعر هي ذروة الأدب و قمة ما تجود به القرية و عُرف بعض الشعراء بمنظوماتهم الحِكْمية، منهم لبيد بن ربيعة (٥٦٠-٦٦١م)، ذو الإصبع العدواني (?-٦٠٠ م)، الأفوه الأودي، عبيد بن الأبرص (٤٥٥-٥٥٤ م)، زهير بن أبي سُلمي (٥٣٠-٦٢٧م) و حاتم الطائي (?-٦٠٥م) و قيس بن عاصم المنقري و....

أما الحكمة فما هي لغويًا وعرفيًا؟

قال عنها اللغويون : «لها معنيان رئيسيان : «المعنى الأول : المنع، و المعنى الثاني: الإستحكام و ارتباطها مع هذين المعنيين هو أنها مانعة من الجهل و الأخلاق المذمومة و تطلق على العلم الخالي من الخلل و المحكم الذي لا يقبل الخطأ مطلقاً» (الريشهري، ٨١) «و الحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، و يقال لمن يحسن دقائق الصناعات و يتقنها : حكيم» (ابن منظور، مادة حكم) و«العلم بجقائق الأشياء و العمل بمقتضاها و لهذا انقسمت إلى علمية و عملية، و يقال: هي القوة العقلية العلمية وهذه هي الحكمة الإلهية» (تاج العروس) و قال عنها المفسرون : «الحكمة بكسر الحاء على فعلة، إسم نوع يدل على نوع المعنى، فمعناه النوع من الإحكام و الإتقان، أو نوع من الأمر المتقن الذي لا يوجد فيه ثلثة ولا فتور. و غلب استعماله في المعلومات الفعلية الحقة الصادقة التي لا تقبل البطلان و الكذب البتة» (الطباطبائي، ٣٩٥/٢) و «أن يدعوهم إلى الأفعال الحسنة التي لها مدخل في استحقاق المدح و الثواب عليها» (الطوسي، ٤٤٠/٦) «الحكمة القرآن ... لأنه يتضمن الأمر بالحسن و النهي عن القبيح»

(الطبرسي، ١٣٨/٤) و«هي المقالة الصحيحة للحكمة وهي الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة» (الزمخشري، ١٣٨/٢). و بالإمعان في أقوال الفريقين - اللغويين و المفسرين- يتضح الاختلاف الكبير بينهما و بالذات فيما ذهب إليه السيد محمد حسين فضل الله من أن ما ذهب إليه اللغويون ليست معاني للحكمة ... و إنما يعتبرها مصاديق للمعنى تلتقي بالمعنى الواسع للحكمة إلا أنها - المصاديق- لا تتصف بما ذكره لها اللغويون كمعنى حقيقي فهو كمفسر في خلاف مع اللغويين في المعاني التي تبتها لـ «الحكمة» و السبب «لأن مهمتهم ليست تشخيص المعاني و المفاهيم الحقيقية للفظ، بل مهمتهم الأساسية هي تشخيص موارد الإستعمال فحسب، و بيان لصحيح منها من الفاسد». (أسلوب الدعوة في القرآن، محمد حسين فضل الله، ٥٢) و لكنّه مع هذا يعتقد أن أقرب أقوالهم إلى لفظ «الحكمة» و ألصق معنى بها هو: «وضع الشيء في موضعه» أو «صواب الأمر و سداده» و لكنّه ليس هو نفس المعنى و عليه تلتقي صفة الحكمة بـ «الخبرة» و «المران» و«التجربة» الأمر الذي يمكن إطلاقها على العالم و العادل و الحليم و النبي لإشتمالهم على مبادئ العلم و العدل و الحلم و النبوة التي تساعد على وضع الأشياء في مواضعها في العلم حين يبحث و يفكر ، و في العدل حين يقضي و يحكم ، و في الحلم حين يعفو و يسامح ، و في النبوة حين يدعو و يبلغ» (نفس المصدر، ٥٢).

و الخلاصة : أن مفردة «الحكمة» تشير إلى مفهوم «وضع الشيء في موضعه» أو «صواب الأمر و سداده» إلا أن مبادئها تختلف ، كما أن مجالها تتعدّد . و هذا هو ما نفهمه من «الحكمة» لغويًا أو هو الفهم اللغوي لها و يتضح معناها العرفي من خلال معرفة : هل هي محتوى و مضمون ؟ أم هي أسلوب و طريقة ؟ و بالرجوع إلى بعض

التفاسير وُجد أنّها حاولت أن تجعل من الحكمة مضموناً للدعوة و متعلّقاً لها يتمتّلان بالأمر بالحسن و التّهي عن القبيح، أو بالإتيان بالآيات القرآنية في مقام الدعوة، أو بإقامة الأدلّة على الحقّ وهي ممّا لاتنسجم على أن تكون محتوى و مضموناً.

و إذا لم يكن هذا هو المطلوب فما هو إذن ؟

«المراد بالحكمة هو السّير على الطريقة الواقعية، و نعني بها تلك التي تلاحظ الواقع الخارجي للمجتمع الذي تعيش فيه، و تدرس ظروفه العقلية و الفكرية و النفسية و الإجتماعية، و تضع كلّ ذلك في حساباتها قبل بداية العمل» (نفس المصدر، ٥٢).

و قد وردَ هذا المعنى في أسلوب آخر هو: «أنّها تمثّل الخطّ العمليّ الذي يحاول أن يزنّ الأمور بموازينها الحقيقية التي تتوازن فيها المبادئ مع واقعية الحركة... لئلا تنحرف المسيرة عن المبادئ باسم الواقعية، أو تبتعد عن الواقع، نحو المثالية، باسم المحافظة على المبادئ و ذلك هو ما نستوحيه من تأكيد القرآن الكريم على الحكمة إلى جانب الكتاب... فيما هو الخطّ المستقيم الذي تتحرّك فيه النظرية مستوى الخطّ الواقعيّ للتطبيق»، (الحكمة في خط الإسلام، فضل الله، ص ٨).

و بعد الإمام بمعنيي «الحكمة» اللغوي والعرفي، نتطرّق الآن إلى الحديث عن الحكمة في الأدب الجاهليّ. المعروف عن العصر الجاهليّ أنّه عصر جهلٍ و شرك و وُصِفَ أهلُه بالسّفه و القسوة و الغلظة و الإنسياق وراء الأهواء و الأحقاد... لذلك قد يبدو مستغرباً أن نتحدّث عن الحكمة في عصرٍ سُمّي بالعصر الجاهليّ.

سابقة البحث: طبعاً لم يكن مجال «الحكمة في الشعر الجاهليّ» خالياً من الأبحاث بشكل عام نحو ما كُتب عن الحكمة في الشعر زهير او النابغة وغيرهما من الشعراء

الجاهليين في كتب تاريخ الأدب العربي مثلما قال شوقي ضيف في كتابه وغيره و كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني و كذلك شروح دواوين الشعراء الجاهليين و في ايران مثلما قال الدكتور آذر شب في كتابه في الأدب العربي و تاريخه حتّي نهاية العصر الأموي و الكتب و المقالات لغيره نحو ما جاء في مقالة لمؤلف هذه الدراسة «زهير بن أبي سلمى و أسلوبه المدحي» نشرت في مجلة آفاق الحضارة الرقم ٢٣، ولكن لم يُشاهد مقال يدرسُ هذا الموضوع بالضبط أو ما يقاربه أي «الترعة الحكيمية في الشّع الجاهلي» و الجديد في هذا البحث ربما يتخلص في تركيزنا حول موضوع هذه الترعة في شعر العصر الجاهلي خاصة حيث لم يعتن به أحد بشكل مركز قبلاً.

و أما بالنسبة إلى منهج البحث في هذه الدراسة فإنه وصفي - تحليلي يقوم على «الطريقة المكتبية» التي تُبنى على مطالعة الكتب و المقالات التي تطرقت إلى هذا الموضوع بصورة متفرقة أمثال الكتب التي أشرنا إليها آنفاً و الكتب الأخرى ثمّ مراجعة دواوين الشعراء، وللتأكد من صحّة الأشعار في ديوان ما راجعنا عدّة طبعات منه؛ و خلال الدراسة حصلنا على نتائج عدة قدّمناها في نهاية البحث.

و نحن بدورنا نُقرّ بمثالب العصر الجاهليّ، و بما أتصف به العربي الجاهلي، من تعسّف و جفاء و ميل شديد إلى القسوة... أو ما أصاب الحياة في تلك الحقبة من وهن و نزيف و إختلال من جرّاء هذه المثالب و من جرّاء الحروب القبلية و نزعات الثأر، أو بتأثير من معتقدات و مفاهيم أعراف و علاقات اجتماعية مختلفة.

فالشّع الجاهليّ يؤيد ذلك الخلل الفاضح في حياة العرب قبل الإسلام، و يصرّو لنا مآزق الحياة الذي ولّدته مثالب الجاهلية وأعرافها المتخلّفة. بيد أن هذه الصورة، ليست هي الصورة الوحيدة لحياة عرب الجاهلية، بل ليس

و نشاهد زهير بن أبي سلمي، يبلور هذه الصِّفات في
 مديح هرم بن سنان مُشيداً بخصال هذا الرِّعيم المصلح:
 ولأنت أوصل ما علمتُ به
 لشوابك الأرحام و الصَّهْر
 حامي الذمار على محافظةٍ
 الجُلِّي أمينٌ مُغيَّبِ الصِّدرِ
 حَدِبٌ على المولى الضَّرِيك إذا
 نابت عليه نوائبُ الدَّهرِ
 و مُرَهَّقُ النيرانِ يحمدي في
 اللأواء غيرُ مُلَعِنِ القَدْرِ
 متصرِّفٍ للمجد ، معترِفٍ
 للنائبات ، يراخُ للذِّكرِ
 جَلَدٌ يَحْتُ على الجميع إذا
 كِرَةَ الظَّنُونُ جوامعَ الأَمْرِ
 والستُّرُ دون الفاحشات و ما
 يلقاك دون الخير من سترِ
 (الديوان، ٢٨-٢٩).

فالقِيادة في نظر الشاعر مسؤولية كبيرة لا يجوز أن تناط بمن
 لا تتوفَّر فيه شروطها و مقوماتها ، من مؤهلات و تفوقٍ
 وإستعداد دائمٍ للتحمُّل و التجلُّد و التَّضحية من أجل الآخرين.
 فهرم في هذه الأبيات خليق بالقيادة، لأنَّه حلِيم واصل
 للرحم و للقرابة، شجاع متحفِّظ، كاتم للسرِّ، عطوف،
 كريم، حكيم، صبور، حريص على وحدة قومه و تماسكهم
 يستر القبيح، و يظهر فضله و خيره للجميع. والشاعر
 الجاهلي لا يرتقي إلى مرتبة شاعر القبيلة و الناطق باسمها
 أو المعبر عنها ما لم يعبر شعره عن معاني الحكمة و سداد
 القول و الفعل؛ لعلَّ ذلك يفسِّر لنا انتشار الحكمة، حتَّى في
 شعر عددٍ من الشعراء الذين لم يعرفوا بالحكمة و الحلم و
 التعقُّل ، بل عُرفوا بالقسوة و الفتك و نزعة الإنتقام كعامر بن

من الإنصاف، أن تحجبَ هذه الصورة بقتامتها كل ما
 عداها من جوانب أو صور الحياة المختلفة الأخرى. غير أنَّ
 الشُّعْر الجاهلي ينقل كذلك فضائل أهل الجاهلية و مثلهم
 العليا كما ينقل مثالبهم و يظهر لنا مباحاة العربيِّ الجاهلي و
 مفاخرته بالفضائل و مدى تعلُّقه وإعجابه بالحكمة و الحلم
 و التعقُّل و العدل و الإنتصار للحقِّ و مجانبه الظلم، بل إنَّ
 الدعوة في الشُّعْر الجاهلي إلى هذه الفضائل، تكاد تغلب
 دعوات التطرُّف و القسوة و الجور و الإستتار و حبَّ
 الإنتقام. و كانت الحكمة هي الشرط الأوَّل في الوصول
 إلى السِّيادة في القبيلة أو السيادة في الشعر. فالقبيلة لم تسوِّد
 عليها إلَّا من أحكمته التجارب و هدَّبه الحلم و سعة الصِّدر
 و شهد له الجميع بالتعقُّل و الأناة و بعد النظر و
 سداد الرأي... . لذلك نلاحظ الحطيئة أحد شعراء الجاهلية
 يمتدح مؤهلات القيادة في آل شماس فيصفهم بما يوصف به
 الحاكم الصالح من حلم و تعقُّل و استقامة و سداد في
 القول و الفعل و حزم و أناة ، كما في الشعر المنسوب إليه:

يسوسون أحلاماً بعيداً أنأثها
 وإن غضبوا ، جاء الحفيظة والجُدُّ
 أولئك قومٌ إن بنوا أحسنوا البنى
 وإن عاهدوا أوفوا، وإن عقدوا شدُّوا
 وإن كانت التعماء عليهم جزوا بها
 وإن أنعموا لا كدروها ولاكدوا
 و إن قال مولاهم على جُلِّ حادث
 من الدَّهر، رُدُّوا فضل أحلامكم رُدُّوا
 مغاويرُ أبطال، مطاعيمُ في الدَّحي
 بنى لهم آباؤهم و بنى الجُدُّ
 (الديوان، ٥٥).

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذي
 وفيها لمن خاف القلي متعزل
 لعمرك ما بالأرض ضيق على امريء
 سري راغباً أو راهباً، وهو يعقل
 أديم مطال الجوع حتى أميته
 وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل
 وأستفّ ترب الارض كي لا يرى له
 على من الطول امرؤ متطول
 ولولا اجتناب الدّام، لم يلف مشرب
 يعاش به ، إلّا لدي و مأكّل
 ولكنّ نفساً مرّة لا تقيم بي
 على الضيم، إلّا ريشما أتحوّل
 وأعدم أحياناً وأغني، وإتما
 ينال الغنى ذو البعدة المتبدّل
 فلاجزع من حلّة متكشّف
 ولامرح، تحت الغنى أتخيل
 ولا تزدهي الأجهال حلمي ولا أرى
 سؤلاً بأعقاب الأقاويل أتمل
 (المصدر نفسه، ٥/١).

و كذلك شعر امريء القيس، شاعر العبث و المجون و
 الإنقياد للشّهوات، يعبر أحياناً عن الحكمة و عمق الرؤية التأمّلية
 والإحساس العميق بعبث الوجود وهشاشته، حتى كأنّ رحلته
 العابثة الماجنة قد انتهت به إلى الحكمة و التصبّر. يقول و كأننا
 أمام حكيم متأمّل مشغول بحقائق الوجود الكبيرة :
 أرانا موضعين لأمر غيب
 و نُسحر بالطعام و بالشراب
 عصافير و ذبّان و دود
 و أجرأ من مجلّة الذئاب
 (الديوان، ٢٠٣).

الطفيل و الشنفرى و ... أو اشتهروا بالعبث و الإستهتار و
 الإنصراف إلى المذات كامريء القيس و ... لذلك نلاحظ
 عامرين الطفيل أحد فرسان الجاهلية المشهورين بالقسوة و
 العنف، يتباهى بحكمته و حلمه و سداد رأيه و عدله وقد ساد
 قومه، على حدّ قوله بفضل هذه المؤهلات و الصفات، فقبيلته
 لم تسوّده عليها بالوراثة أو بالتسبب بل بالجدارة و الكفاءة،
 كما في الشعر المنسوب إليه:
 وإتي و إن كنت ابن سيد عامر
 و فارسها المندوب في كل موكب
 فما سوّدني عامر عن وراثة
 أي الله أن أسمو بأمّ و لا أب
 لكنّي أحمي حماها و أتقي
 أذاها و أرمي من رماها بمنكب
 (الديوان، ١٣).

كما يقول في موضع آخر:
 فإنّ لنا حكومة كلّ يوم
 يبين من مفاصله الصواب
 وإتي سوف أحكم غير عاد
 ولا قدع ، إذا التمس الجواب
 حكومة حازم لا عيب فيها
 إذا ما القوم كظهم الخطاب
 فإنّ مطية الحلم تأتي
 على مهل و للجهل الشباب
 (البيستاني، ٢٩٦/١).

و حتى الشنفرى الشاعر الفاتك الصعلوك يجد لديه ما
 يفاخر به من الحكمة و السجايا و الخصال الحميدة من
 حزم و عفة و إقدام و مجافاة لكلّ ما يعيب، و إنّ من يقرأ
 لاميته المشهورة، يخال أنّه أمام أحد الحكماء و الحكماء،
 كما ورد في الشعر المنسوب إليه:

و كما في قوله عن سرعة انطفاء الحياة و الأشياء :

كأني لم أركب جواداً للذة

و لم أتطن كاعباً ذات خلخال

و لم أسبأ الرِّقَّ الرويِّ و لم أقل

لخيلي كربي، كربةً بعد إجحافٍ (الديوان، ٦٢).

كما أن الشاعر العربي الجاهلي «الأسود بن يعفر النهشلي

» من الشعراء الذين نادموا الملك النعمان يذكرنا في شعره

بالصورة التي صور بها القرآن الكريم الدنيا : « و اضرب لهم

مثل الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض

فأصبح هشيماً تذروه الرياح ... »، [الكهف؛ ٤٥]:

أين الذين بنوا فطال بناؤهم

و تمتعوا بالأهل و الأولاد

فإذا التَّعيم و كل ما يلهي به

يوماً يصيرُ إلى بلى و نفاذ

ماذا أوَّمل بعد آل محرِّق

تركوا منازلهم و بعد إياد

أهل الخورنق و السدير و بارق

و القصردي الشرفات من سندان

(البستاني، ١/٣٤٩).

الذي يهمننا في أقوال هؤلاء الشعراء هو أن مثل هذه

المباهاة أو المفاخرة بالحكمة و العفة و سداد الرأي تُفصح

عن مدى إعجاب العربي الجاهلي و افتتانه بالحكمة و

الفضائل، حتَّى و لو كان بعضهم يفتقر إلى ما يفاخر أو

يتباهى به. ولكن الذي يلفت نظرنا هو أن الحكمة في

الشعر الجاهلي تتجلى في صور و أشكال مختلفة، منها في

الحلم ؛ والقسوة والشدة ؛ والتعامل بالمثل؛ والحزم و

الإتقان ؛ والصبر و الكتمان؛ والمصانعة و المداراة...و.

نحن الآن نتطرق إليها واحدة تلو الأخرى:

الحلم في الحكمة في الشعر الجاهلي

الحلم صفة من صفات الله سبحانه و تعالى و عمود من

أعمدة الخلق الإسلامي، قال الإمام علي (ع):

«الحلم عشيرة» (الدشتي، ح: ٤١٨)؛ «الحلم و الأناة

توأمان ينتجهما علوُّ الهمة» (المصدر نفسه، ح: ٤٦٠).

نعم ؛ يتضح من تتبّع بعض جوانب الحكمة في

الشعر الجاهلي و تنوعاتها، أن نزعة إصلاحية و إنسانية

كانت تنمو و تقوى، قبل ظهور الإسلام، يمثّل هذه التَّرعة

طائفة من الشعراء أُنصفوا بالحلم و العقل و الرأفة و

الإيثار و الميل إلى المسالمة و الإحساس العميق بالمسؤولية و

الرغبة الملحة في إصلاح مفاصد المجتمع فقد كرّسوا في

شعرهم هذه المفاهيم العالية و جنّدوا شعرهم و حكمتهم

لإصلاح البناء الاجتماعي و لتعزيز المفاهيم و القيم

الأخلاقية و الإنسانية. و لذلك نلاحظ مثلاً حاتم الطائي،

أحد حكماء العرب في الجاهلية، يرى إنّه لا يمكن معالجة

الأحقاد و استئلال الضغائن من الصدور أو إطفاء نار الفتنة

و الحروب، إلّا بالحلم و التروي أو بحمل النفس على

التحلّم، فاللجوء إلى الحلم و كف الأذى كفيلاً بترع

فتيل الضغائن و الأحقاد و إبطال طاقتهم المدمرة، كما

رؤي عنه:

تحلّم عن الأذنين و استبقِ ودهم

و لن تستطيع الحلم حتّي تحلّما

متي ترق أضغان العشيرة بالأني

و كف الأذي، يحسّم لك الداء محسما

(البستاني ٢/٣٠٦).

و يتباهى معن بن أوس بحلمه و سعة صدره و تسامحه،

مشيراً إلى دور الحلم و أثره في معالجة الأحقاد و تقليم

أظفار الكراهية و البغضاء، التي كانت السبب الرئيس في

نشوب الحروب، كما في الشعر المنسوب إليه:

و ذي رَحِمٍ قَلَمْتُ أَظْفَارَ ضَغْنِهِ
 لِقَدْ كَانَ، أَمَّا حَلْمُهُ فَمَرَّوْحٌ
 بِحَلْمِي عَنْهُ، وَ هُوَ لَيْسَ لَهُ حِلْمٌ
 عَلِيٌّ وَ أَمَّا جَهْلُهُ فَعَزِيبٌ
 يَجَاوِلُ رَغْمِي، لَا يَجَاوِلُ غَيْرَهُ؛
 مَا أَحْيِي، مَا أَحْيِي، لَا فَاحِشٌ عِنْدَ رِيْبِهِ
 وَ كَالْمَوْتُ عِنْدِي أَنْ يَجِلَّ بِهِ الرَّغْمُ
 وَلَا وَرَعٌ، عِنْدَ اللَّقَاءِ، هَيُوبٌ
 فَإِنْ أَعْفُ عَنْهُ أَغْضِ عَيْنًا عَلَى قَدِي
 حَلِيمٌ، إِذَا مَا سُورَةُ الْجَهْلِ أَطْلَقْتُ
 وَ لَيْسَ بِهِ بِالصَّفْحِ عَنْ ذَنْبِهِ عِلْمٌ
 جُبِي الشَّيْبُ، لِلنَّفْسِ اللَّجُوجِ غُلُوبٌ
 إِذَا سُمْتُهُ وَصَلَ الْقَرَابَةَ، سَامِي
 هُوَ الْعَسَلُ الْمَاذِي حَلْمًا وَ شِيمَةً
 قَطِيعَتَهَا، تَلِكُ السَّفَاهَةَ وَ الْإِثْمُ
 فَمَا زَلْتُ فِي لَيْبِي لَهُ وَ تَعَطَّفِي
 لِيْهِ، كَمَا تَخْنُو عَلَى الْوَلَدِ الْأُمُّ
 لِأَسْتَلَّ مِنْهُ الضَّغْنَ حَتَّى اسْتَلْتُهُ
 وَ قَدْ كَانَ ذَا ضَغْنٍ يَصُوبُهُ الْحَزْمُ
 وَ أَبْرَأْتُ غِلَّ الصَّدْرِ مِنْهُ تَوْسَعًا
 بِحَلْمِي، كَمَا يُشْفَى بِالْأَدْوِيَةِ الْكَلْمُ
 (المصدر نفسه، ٥٦/٢).
 لَسْنَا هُنَا، أَمَامَ حَكِيمٍ وَ مَصْلِحٍ وَ شَاعِرِ حَلْمٍ فَحَسَبِ،
 بَلْ نَحْنُ أَمَامَ طَبِيبِ نَفْسِي مَاهِرٍ، يِعَالِجُ أَكْثَرَ الْأَمْرَاضِ وَ
 أَحْطَرَهَا فَتَكَاً وَ تَدْمِيرًا لِإِنْسَانِيَةِ الْإِنْسَانِ... .
 وَ يَمْتَدِحُ زَهْرِيْنَ بِنِ أَبِي سَلْمِي حَصْنِ بِنِ حَذِيفَةَ بِنِ بَدْرِ،
 بِأَحَبِّ خِصْلَةٍ يَفَاخِرُ وَ يِعْتَزُّ بِهَا الْعَرَبِيُّ:
 وَ ذِي خَطَلٍ فِي الْقَوْلِ يَحْسَبُ أَنَّهُ
 مَصِيبٌ، فَمَا يَلْمَمُ بِهِ، فَهُوَ قَائِلُهُ
 عَبَاتَ لَهُ حَلْمًا وَ أَكْرَمْتَ غَيْرَهُ
 وَ أَعْرَضْتَ عَنْهُ وَ هُوَ بَادٍ مَقَاتِلُهُ
 (الديوان، ٥٩).
 وَ حِينَ يَرِثِيْ كَعْبَ بِنِ سَعْدِ أَحَاهِ، أَمَا الْمَغْوَارُ، لَا يَجِدُ فِي
 سَجَائِيهِ وَ خِصَالِهِ الْحَمِيدَةِ فَضِيلَةً أَوْ صِفَةً أَجْمَعَ لِلْفَضَائِلِ مِنْ
 الْحَلْمِ، فَيَكْرُرُ إِشَادَتَهُ بِحَلْمِهِ وَ أَنَاتِهِ وَ صَبْرِهِ عَلَى الْمَكَارِهِ:

لَقَدْ كَانَ، أَمَّا حَلْمُهُ فَمَرَّوْحٌ
 عَلِيٌّ وَ أَمَّا جَهْلُهُ فَعَزِيبٌ
 مَا أَحْيِي، مَا أَحْيِي، لَا فَاحِشٌ عِنْدَ رِيْبِهِ
 وَ كَالْمَوْتُ عِنْدِي أَنْ يَجِلَّ بِهِ الرَّغْمُ
 وَلَا وَرَعٌ، عِنْدَ اللَّقَاءِ، هَيُوبٌ
 فَإِنْ أَعْفُ عَنْهُ أَغْضِ عَيْنًا عَلَى قَدِي
 حَلِيمٌ، إِذَا مَا سُورَةُ الْجَهْلِ أَطْلَقْتُ
 وَ لَيْسَ بِهِ بِالصَّفْحِ عَنْ ذَنْبِهِ عِلْمٌ
 جُبِي الشَّيْبُ، لِلنَّفْسِ اللَّجُوجِ غُلُوبٌ
 إِذَا سُمْتُهُ وَصَلَ الْقَرَابَةَ، سَامِي
 هُوَ الْعَسَلُ الْمَاذِي حَلْمًا وَ شِيمَةً
 قَطِيعَتَهَا، تَلِكُ السَّفَاهَةَ وَ الْإِثْمُ
 فَمَا زَلْتُ فِي لَيْبِي لَهُ وَ تَعَطَّفِي
 لِيْهِ، كَمَا تَخْنُو عَلَى الْوَلَدِ الْأُمُّ
 لِأَسْتَلَّ مِنْهُ الضَّغْنَ حَتَّى اسْتَلْتُهُ
 وَ قَدْ كَانَ ذَا ضَغْنٍ يَصُوبُهُ الْحَزْمُ
 وَ أَبْرَأْتُ غِلَّ الصَّدْرِ مِنْهُ تَوْسَعًا
 بِحَلْمِي، كَمَا يُشْفَى بِالْأَدْوِيَةِ الْكَلْمُ
 (المصدر نفسه، ٥٦/٢).
 لَسْنَا هُنَا، أَمَامَ حَكِيمٍ وَ مَصْلِحٍ وَ شَاعِرِ حَلْمٍ فَحَسَبِ،
 بَلْ نَحْنُ أَمَامَ طَبِيبِ نَفْسِي مَاهِرٍ، يِعَالِجُ أَكْثَرَ الْأَمْرَاضِ وَ
 أَحْطَرَهَا فَتَكَاً وَ تَدْمِيرًا لِإِنْسَانِيَةِ الْإِنْسَانِ... .
 وَ يَمْتَدِحُ زَهْرِيْنَ بِنِ أَبِي سَلْمِي حَصْنِ بِنِ حَذِيفَةَ بِنِ بَدْرِ،
 بِأَحَبِّ خِصْلَةٍ يَفَاخِرُ وَ يِعْتَزُّ بِهَا الْعَرَبِيُّ:
 وَ ذِي خَطَلٍ فِي الْقَوْلِ يَحْسَبُ أَنَّهُ
 مَصِيبٌ، فَمَا يَلْمَمُ بِهِ، فَهُوَ قَائِلُهُ
 عَبَاتَ لَهُ حَلْمًا وَ أَكْرَمْتَ غَيْرَهُ
 وَ أَعْرَضْتَ عَنْهُ وَ هُوَ بَادٍ مَقَاتِلُهُ
 (الديوان، ٥٩).
 وَ حِينَ يَرِثِيْ كَعْبَ بِنِ سَعْدِ أَحَاهِ، أَمَا الْمَغْوَارُ، لَا يَجِدُ فِي
 سَجَائِيهِ وَ خِصَالِهِ الْحَمِيدَةِ فَضِيلَةً أَوْ صِفَةً أَجْمَعَ لِلْفَضَائِلِ مِنْ
 الْحَلْمِ، فَيَكْرُرُ إِشَادَتَهُ بِحَلْمِهِ وَ أَنَاتِهِ وَ صَبْرِهِ عَلَى الْمَكَارِهِ:

قد يبعثُ الأمر العظيم صغيره
 حتَّى تظلَّ له الدماءُ تصبُّبُ
 والظلمُ فرَّقَ بين حَيِّي وائل
 بكرٌ تُساقِها المنايا تغلبُ
 قد يورد الظلم المبين آجناً
 ملحاً يخالط بالزَّعاف و يقشب
 وقراف من لا يستفيق دَعارةً
 يعدي كما يعدي الصحيح الأجرُب
 والصدق يألفه اللَّبيب المرتجي
 والكذب يأنفه الديني الأحيبُ
 ولقد بدأ لي أَنه سيُغولني
 ما غالَ عاداً والقرون فأشعبوا
 أدوا الحقوقَ تفرِّ لكم أعراضكم
 إنَّ الكريم إذا يجرب يغضب
 (الديوان ص ٩).

القسوةُ والشَّدَّةُ في الحِكْمية في الشَّعر الجاهلي
 يبدو أنَّ الحكيم الجاهلي الذي يدعو إلى اللين والتسامح
 و الصنح و العدل؛ قد يدعو إلى موقف مغاير و هو
 القسوة و الحزم و حتَّى إلى الظلم إستجابةً لمتطلبات
 الحياة و ضرورتها و حاجاتها، كما وردَ في الشَّعر
 المنسوب إلى الحُصين بن الحُمام المرِّي و هو يفتخر بحزمه و
 سداد رأيه و قدرته على التكيف مع المتغيرات و مع
 متطلبات الحياة:

و لما رأيتُ الودَّ ليس بنافعي
 و أن كان يوماً ذا كوكب مظلماً
 صبرنا و كان الصبرُ ممَّا سجيةً
 بأسيافنا يقطعن كفاً و معصما

حقائق الحياة و الواقع، بل هي ضرورة من ضرورات الحياة
 و سياج لحمايتها و شرط من شروط معالجة تناقضها و
 اختلالها، و نلاحظها لاتقف عند حدود الحُصَّ على
 الفضائل و القيم الإنسانية و الدعوة إلى الإصلاح، بل
 تسعى إلى التكامل من خلال دعوتها إلى مجانبة البغي و
 الظلم و القسوة و التسرع و الشطط و هي في دعوتها
 المزدوجة هذه لاتقدِّم معانٍ مجردة للفضائل و المثل العليا، أو
 مواعظ معزولة عن الأحداث و الواقع بل تنقل لنا أمثلة حية
 و تجربة عميقة صادقة، مستقاة من الواقع و الأحداث، كما
 نرى ذي الإصبع العدواني، يعرض علينا مأساة قومه بني
 عدوان، حين قادهم السُّفهُ و نزعة الغي، إلى حرب إفناء و
 إذلال، بعد قوة و منعة و تميُّز بالحكمة و الحلم، كما جاءَ
 في الشَّعر المنسوب إليه:

عذيرَ الحي من عدوا
 ن كانوا حية الأرض
 بغي بعضهم على بعضٍ
 فلم يبقوا على بعض
 فقد صاروا أحاديث
 برفع القولِ و الخفضِ
 و منهم كانت السادا
 ت و الموفونَ بالقرض
 و منهم حكم يقضي
 فلا ينقض ما يقضي
 (الأصفهاني، ٩٢/٣).

و غالباً ما كانت الحكمة وليدة الإحساس بالظلم و
 سلامة النظرة الخاصَّة أو الرؤية الذاتية المستمدَّة من طول
 تأمُّل الواقع المحيط، و هذا ما يبدو من الشعر المنسوب إلى
 طرفة بن العبد في هذا الشَّان:

أنواع الحرب الوقائية، أو وسيلةً من وسائل حماية صفوف الحياة
و منع اتساع رقعة الشر، يقول في هذا المعنى:

و من لم يذد عن حوضه بسلاحه

يهدم، و من لا يظلم الناس يُظلم

(الديوان، ٧٣).

و يقول الشاعر الناقد و الحكم في سوق عكاظ النابغة

الذبياني في القوّة:

تعدو الذئاب على من لا كلاب له

و تحتمي مريض المستأسد الحامي

(الديوان، ١٣٠).

و كما روي عن كعب بن سعد الغنوي:

و لا يلبث الجهال أن يتهضموا

أخا العلم ما لم يستعن بجهول

(حماسة البحتري، ١٦٨).

مبدأ التعامل بالمثل في الحكمة في الشعر الجاهلي

من الواضح أنّ الحكمة في الشعر الجاهلي التي أبحاث
استخدام القسوة و الظلم و الحمق كسلاح يدفع الظلم و لم
يردع القسوة، لم ترفع من شأن الظلم و القسوة و لم
تسقط عنها الصفة البغيضة المستنكرة... و لم تنزل عن
أصحابها صفة الظلم... حتى في حالة الدفاع عن النفس،
بل الحكمة في الشعر الجاهلي تدعو إلى مبدأ التعامل بالمثل
و مجازاة الخير بالخير و الشرّ بالشرّ و هي في دعوتها هذه،
حكمة متوازنة تنسجم في واقعيتها مع ضرورات و
متطلبات الحياة و مع القوانين و الأعراف الدولية و مع
التعاليم السماوية، كما أقرّ القرآن الكريم مبدأ التعامل
بالمثل: «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى

يفلّقن هاماً من رجال أعزّة

علينا و هم كانوا أعقّ و أظلم

(المفضّليات، الضبي، ١٠٤).

الحكمة هنا تتطلّب القسوة و الشدّة، مادام الصبر و

الودّ لم ينفعا في دفع الشرّ و ردّ الظلم، بل إنّ الحكمة تبرّر

الشرّ و تبيحه و تدعو إلى إستخدام العنف، إذا أخفق

الصّفح و الحلم و التسامح في دفع الشرّ و تجنّب اللّجوء إلى

العنف، كما روي عن الفند الزماني في هذا المعنى:

صفحنا عن بني ذهل

و قلنا: القوم إخوان

عسي الأيام أن يرجع

ن قوماً كالذي كانوا

فلما صرّح الشرّ

فأمسى و هو عريان

و لم يبق سوى العدو

ن دناهم كما دانوا

و بعض الحلم عند الجهـ

ل للذلة إذعان

و في الشرّ نجاة حيـ

ن لا ينجيك إحسان

(حماسة أبوتمام، ٢٠/٢١ - ٢١).

فاللّجوء إلى الشرّ في مثل هذه الحالة لم يعد مباحاً في

نظر الحكيم الجاهلي فحسب، بل أصبح قارب نجاة و

ضرورة يملئها الواجب تجاه الحياة، كما تحتمها مشروعية

الدفاع عن النفس.

و حتّى زهير بن أبي سلمى شاعر المسألة و الصّفح و

التحلّم، يبرّر الظلم أحياناً، بل يدعو إلى استخدامه أو

التلويح به، لردع الظلم و دفع العدوان، باعتباره نوعاً من

عليكم» (البقرة، ١٩٤)؛ «و كتب عليهم فيها أن النفس
بالتفيس والعين بالعين والأنف بالأذن والأذن بالأذن و
السن بالسن» (المائدة، ٤٥).

ونُسب إلى الشاعر الجاهلي أوس بن حجر:

وعندي قروض الخير والشر مثله

فيؤسي لدى يؤسي ونعمي لأنعم

(الديوان، ١٢١).

كما يقول لبيد بن ربيعة:

وإن تسألن بي، فإني امرؤ

أهين اللّيم وأحبو الكريما

وأجزى القروض وفاءً بها

بيؤسي بيؤساً ونعمي نعيما

(الديوان، ٢١٠).

و يصور لنا قيس بن الخطيم حرباً حاطباً نشبت بين
الأوس والخزرج:

دعوتُ بني عوف لحقن دماهم

فلما أبوا ساحتُ في حرب حاطبِ

و كنتُ امرأ لا أبعث الحرب ظالماً

فلما أبوا أشعلتها كلِّ جانبِ

أربتُ بدفع الحرب حتى رأيتها

عن الدفع لاتزداد غير تقاربِ

(الديوان، ٨٠-٨١)

الحزم والإتقان في الحكمة في الشعر الجاهلي

إحدى صفات الحكيم الجاهلي، هي الحزم والإتقان والقدرة
على التكيف وعلى التجاوب مع متطلبات الحياة و ضرورتها
و التعامل مع الممكن وتجنب المستحيل ما لم يكن له نصيب
من الممكن واحتمالات النجاح. كما يقول الأعشي:

إذا حاجةً ولتلك لاتستطيعها

فخذ طرفاً من حاجة حين تسبقُ

فذلك أدنى أن تنال جسيمها

وللقصْد أجدى في المسير وألحقُ

(الديوان، ٢٤٣/١).

وكما نُسب إلى عمرو بن معدي كرب:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه

و جاوزهُ إلى ما تستطيعُ

(الأصفهاني، ٢٤٣/١٥).

نعم كما نلاحظ؛ هذه الدعوة إلى الأخذ بالممكن و
تجاوز المستحيل إلى ما هو مستطاع هي صورة مغايرة
لصورة العربي الجاهلي المتهم بالتعسف والتطرف و البعد
عن العقل.

ثم إن الحزم والإتقان في الحكمة في الشعر الجاهلي هما
معياري الوعي و سلامة الحواس و التوازن الذهني سواء كان
الإتقان في القول أو في الفعل؛

يقول الخطيئة في مديح آل شماس، فيصفهم بسداد الرأي

و إحكام الأمور و إتقان الفعل:

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنى

وإن عاهدوا أوفوا و إن عقدوا شدوا

وإن كانت النعمي عليهم جزوا بها

و إن أنعموا لاكدروها و لاكدوا

(الديوان، ٥٥).

ويقول تابتُ شراً:

إذا المرء لم يحتل و قد جدّ جدّه

أضاع وقاسى أمره و هو مدبرُ

ولكن أخو الحزم الذي ليس نازلاً

به الخطبُ إلّا و هو للقصْد مبصرُ

(البستاني، ١٦/١).

و يفاجر قيس بن الخطيم بصره على مكاره الحروب:
و ليس أخو الحرب الشديدة بالذي
إذا زينتُهُ، جاء للسلم أخضعاً
أخو الحرب لا يتأذ للحرب مثته
ولا يظهر الشكوى و إن كان موجعا
(حماسة البحتري، ٣٤).
و في كتمان السرّ، نُسب إلى الشاعر الفارس و البطل
المغوار في موقعة «القادسية» أبو محجن الثقفي:
لاتسألني الناس عن مالي و كثرته

وسألني القوم عن بدلي و عن خلقي
قد يعلم القوم أنني من سراهم
إذا سما بصر الرعديدة الفرق
وأكشف المأزق المكروب غمته
و أكتم السرّ فيه ضربة العنق
و قد أجود و ما مالي بذني فنع
و قد أكر و راء المحجر البرق
نلاحظ الشاعر يجود بماله رغم حاجته اليه ولكنه
«بالسرّ» شحيحّ ضنينّ إذا استودعه أحد هذه الأمانة
الغالية، كما أنه يرى أن يكون في إفشائه ضرب الأعناق.
و في كتمان السرّ و حفظ اللسان يقول إمريء القيس:
إذا المرء لم يحزن عليه لسانه
فليس على شيء سواه بخزان
(الديوان، ٣٤).

المصانعة و المداراة في الحكمة في الشعر الجاهلي
يبدو أنّ الشاعر الجاهلي يرى أنّ في المصانعة و المسايرة و
المحاملة، و إخفاء مشاعر العداوة و البغضاء نوعاً من أنواع
الحكمة و سداد الرأي؛ أمّا من وجهة الإسلام فإنّ الرسول
(صلي الله عليه و آله و سلم) يقول: «رأس العقل

و يقول أبوأذينة في الحزم و الإتقان:
و أحزمُ الناس من إن فرصةً عرضت
لم يجعل السبب الموصول منقضا
و أنصفُ الناس في كل المواطن من
سقى المعادين بالكأس الذي شربا
لاتقطعن ذنب الأفعى و تُرسلها
إن كنتَ شهماً فأتبِع رأسها الذنبا
(المصدر نفسه، ١/٢٦٤).

الصبر و الكتمان في الحكمة في الشعر الجاهلي
أحياناً نجد دعوة الشاعر الجاهلي إلى الحزم و الإتقان تدخل
في إطار واقعي للحكمة الجاهلية، فالحزم في الحكمة في
الشعر الجاهلي يعني القدرة على وضع الأمور في موضعها
الصحيح، و بهذا القياس يمكن اعتبار الصبر و الحذر و
كتمان السرّ و القسوة عند الحاجة و اغتنام الفرص عندما
تسبح، نوعاً من أنواع الحكمة و الحزم، كما يقول الشاعر
الصابر المؤمن أبوذؤيب الهذلي في حكمة الصبر و التجلّد، و
قد امتحن بمصيبه تميد لها الجبال الراسيات، و لكنّها لم
تزعزع له إيماناً، و لم تصدع له كبدًا... بل وقف منها
موقف الصابر المحتسب فقد مات بنوه الخمسة في الطاعون:
أمن المنون و ريبها تتوجّع

و الدهر ليس بمعتبٍ من يجزّع
و لقد حرصتُ بأن أدافع عنهم
و إذا المنية أقبلت لاتدفع
و تجلدي للشامتين أريهم
أني لريب الدهر لاتضعع
حتي كأتي للحوادث مروّة
بصفا المشرق كل يوم تفرع
(المصدر نفسه، ٢/٧٠).

كما نُسب إلى عبيد بن الأبرص في مجمرته الحكيمة:
 إذا كنتَ لم تعباً برأي و لم تُطع
 لنصحٍ ولا تُصغي إلى قول مرشدٍ
 فلا تتقي ذمَّ العشيرة كلها
 و تدفع عنها باللسان و باليد
 و تصفح عن ذي جهلها و تحوطها
 و تقمع عنها نخوة المتهدد
 و تتزل عنها بالمكان الذي به
 يري الفضل في الدنيا على المتحمّد
 فلستَ و إن علّلت نفسك بالمتى
 بذئ سؤددٍ بادٍ و لا كرب سيدٍ
 (الديوان، ٥٨).

لقد ارتقت هذه التزعة لدى بعض عرب الجاهلية و بعض شعرائها قدراً من التعاطف و السموّ، يصعب تصديقُهُ، فقد تجاوزت عاطفة هؤلاء المصلحين مجتمعهم البشريّ، لتشمل الوحوش و الطير و الأشياء في الصحاريّ، بنظرة عطوف حانية نادراً نجد لها نظيراً أو مثيلاً في الشعر الإنسانيّ جميعه... .

يروى عن الشاعر النجاشي، في قصّة له مشهورة مع ذئبٍ عطش في الصحراء، يسعى منافسة الشاعر على مورد ماء، و بعد حوارٍ يحمل معاني إنسانية مع الذئب الظام، يتخلّى له الشّاعر عن المورد و يمضي في طريقه رفقا به و خوفاً عليه من الموت، ينشد النجاشي في قصيدته هذه:

و ماءٍ كلون الغسل قد عاد آجناً
 قليل به الأصوات في بلد محلٍ
 وجدتُ عليه الذئب يعوي كأنّه
 خليعٌ خلا من كل مال و من أهلٍ
 فقلتُ له يا ذئبُ، هل لك في في
 يؤاسي، بلا منّ عليك و لا يخل

المدارة» (ميرزاوي، ٥١)؛ «مدارةُ الناسِ نصفُ الإيمانِ و الرّفقُ بهم نصفُ العيش» (المصدر نفسه، ٤٤٨).
 كما يقول الإمام علي (عليه السلام) في هذا الشأن، «مقاربةُ الناسِ في أخلاقهم أمنٌ من غوائلهم» (دشّي، ح: ٤٠١).
 أمّا الحكيم الجاهلي فنراه يبالغ أحياناً في دعوته إلى مصانعة الأعداء الأقوياء و مدهنتهم و مسالمتهم، ريثما تحين الفرصة المواتية للمكاشفة و الماهرة و المواجهة، كما يقول الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى:

و من لأيصانع في أمور كثيرة
 يضرّس بأنياب و يوطأ بمنسم
 (الديوان، ٨٧).

و يقول المتلمّس في حكمة المهادنة و المدارة ريثما تحين الفرصة المواتية:

وأطرق إطراق الشّجاع ولو يرى
 مساعاً لنأبيه الشّجاع لصمّما
 (البيستائي، ١/١٨٨).

و نُسب إلى معن بن أوس المزنيّ:
 أكاشرُ ذا الضغن المبين ضغنهُ
 و أضحك حتّي يظهر الناب أجمع
 و أدهنه بالقول دهنًا و لو رأى
 سريرة ما أخفي لبات يفرغُ
 (حماسة البحتريّ، ١٤).

التزعة الإنسانية في الحكمة في الشعر الجاهلي

ونلاحظ فيما سبق كيف تلتقي الحكمة في الشعر العربي الجاهليّ، بل كيف تندمج أحياناً بالتزعة الإنسانية و بكل ما يميزها من مشاعر الرحمة و الحنان و الرأفة و الإيثار و الحدب، و الإحساس بالمسؤولية حيال الآخرين سواء في القول أو في الفعل،

فقال هداك الله للرشد إنما

دعوت، لما لم يأتيه سبع قبلي

فقلت عليك الحوض إني تركته

و في صفوه فضل القلوص من السجل

فطرب يستدعي ذئاباً كثيرة

وعديت، كل من هواه، على شغل

(الشريف المرتضي، ٢/٢١١).

وهناك رواية عن عبدالمطلب جد الرسول الكريم (ص)،

أنه تخلى عن مصاحبة صديقه و قريبه، حرب بن أمية، لأنه

قتل أحد اليهود بغير الحق، ثم لم يكتف بذلك، بل فرض

عليه أن يدفع مائة ناقة دية لابن عم اليهودي القتيل، و هي

دية ما كان يحلم بها إلا سادة قريش (الألوسي، ٢/٣٢٣):

نعم، هناك كثير من الأحداث و الشواهد تُؤيد نزعة

الإيثار و الوفاء والعفة عند كثير من عرب الجاهلية، بل

تكذب الأحكام المطلقة و المتحاملة لبعض المستشرقين

الذين وصفوا العربي الجاهلي بالطمع و الأنانية و حب

الإمتلاك و شح العواطف و ...

كما نشاهد الشاعر الجاهلي «عروة بن الورد» زعيم

مدرسة الصعاليك في العصر الجاهلي يقول معبراً عن

الإيثار:

و إني إمرؤ عافى إنائي شركة

و أنت إمرؤ عافى إنائك واحد

أهزأ مني أن سمنت و أن ترى

بجسمي مس الحق و الحق جاهد

أفرق جسمي في جسوم كثيرة

و أحسو قراح الماء و الماء بارد

(الديوان، ٣٩-٣٨).

و يقول أيضاً في الإيثار و أدب التعامل:

فراشي فراش الضيف و البيت بيته

و لم يلهي عنه غزال مقنع

أحدثه إن الحديث من القري

وتعلم نفسي أنه سوف يهجع

(المصدر نفسه، ٦١).

كما يقول حاتم الطائي في الإيثار:

وما أنا بالساعي بفضل زمامها

لتشرب ما في الحوض قبل الركائب

فما أنا بالطاوي حقيبة رحلها

لأركبها خفاً و أترك صاحبي

إذا كنت رباً للقلوص فلا تدع

رفيقك يمشي خلفها غير راكب

أنحها فأردفه، فإن حملتكم

فذاك، و إن كان العقاب فعاقب

(الديوان، ١٦-١٧).

ثم يقول في قصيدة أخرى:

و إني لأستحيي صحابي أن يروا

مكان يدي في جانب الزاد، أفرعا

أقصر كفي أن تنال أكفهم

إذا نحن أهوينا و حاجتنا معا

أبيت خميص البطن، مضطمر الحشى

حياء، أحاف الذم أن أتضلعا

(المصدر نفسه، ٦٥).

في هذه الأبيات نشاهد الإحساس المفرط في رفته و

سموه، حيال الآخر والسّم الخلقى والذي يدل على وجود

مناخ من الثقافة الخلقية، و تمذيب المشاعر والسلوك، قد

فتعرككم عرك الرّحى بثفالها
و تلتح كشافاً ثمّ تنتج فتستهم
فتنتج لكم غلماناً أشأمّ كلّهم
كأحمر عادٍ ثمّ ترضع فتفظم
(الديوان، ٨١-٨٢).

فهو في موقفه هذا، يعبر عن الإحساس العميق
بالمسؤولية الاجتماعية، و عن التزامه الأخلاقيّ و الإنسانيّ
تجاه الحياة و النَّاس، و بهذا المقياس يمدح هرم بن سنان و
الحارث بن عوف اللّذين كان لهما الفضل في سبيل الصلح
بين عيس و ذبيان في حرب داحس و الغبراء، بما دفعاه من
مال و إبل و جهد، دية لقتلى القبيلتين و سعيّاً وراء إطفاء
نارالحرب و التغلب على آثارها، إنّه يمدح فيهما الحكمة و
الحلم و العقل والإيثار و الحسّ الإنسانيّ و السخاء و الحزم
و الإلتزام بالاجتمع و الحياة، كما يقول:

يميناً لنعم السّيدان وُجدتُما
على كلّ حالٍ من سَحيلٍ و مُبرمٍ
تداركتما عبساً و ذبيانَ بعد ما
تفانوا و دَقّوا بينهم عطرَ منشمٍ
و قد قلتما: «إن ندرك السّلمَ واسعاً

بمالٍ و معروفٍ، من الأمر نسلم!»
فأصبحتما منها على خير موطنٍ
بعيدين فيها من عُقوقٍ و مأثمٍ
عَظيمينِ في عُليا معدّ هُديتما!

و من يستبَحُ كترًا من المجد يعظُم
تُعفى الكلومُ بالمئين؛ فأصبحت
ينجمها من ليس فيها مُجرمٍ
ينجمها قوم لقومٍ غرامةً
و لم يهر يقروا بينهم ملءَ محجمٍ

أسهمَ في صقل المشاعر و تهذيبها من نزعات الجشع
والأنانية و ...

كما نلاحظ «السّمؤال بن حيان بن عاديا»، الشاعر
الجاهلي، الذي ضُرب به المثل، ف قيل «أوفى من السّمؤال»
لأنّه آثر أن يذبح ولده و لا يسلم لأعداء «امريء القيس»
ما استودعه من مال و سلاح، يرسم لقومه صورةً مشرقة
في البذل و العطاء، يقول في ذلك:

فنحن كماءِ المزن ما في نصابنا
كهام و لا فينا يعدُّ بخيلٍ
و ما أحمدت ناراً لنا دون طارقٍ
و لا ذمنا في النازلين نزيلٍ
(البستاني، ١/٣٤٥).

و نرى حائماً يقدم، بمساهمته الإنسانية و بإيثاره و رأفته
الحانية، نموذجاً متفرداً، إنّه يرتقي بالتَّرعة الإنسانية و القيم
الأخلاقية إلى مستوى الكمال، بل إلى مستوي الأسطورة:
أ ماويّ! إني ربّ واحدٍ أمّه
أجرت، فلا قتلٌ عليه ولا أسرُ
(المصدر نفسه، ١/٣٠٢).

و نلاحظ زهير بن أبي سلمى، يرتقي بحكمته و نزعته
الإنسانية إلى مستوى المصلحين الكبار، ليس فقط، في
دعوته المتكررة إلى الحلم و الرفق و العدل و التعقل، أو
البعد عن البغي و الظلم، بل في موقفه من الحرب و دعواته
المتواصلة و الملحة إلى السّلم، كما في قوله:

و ما الحربُ إلّا ما علمتم و ذقتم
و ما هو عنها بالحديث المرجّم
متي تبعثوها تبعثوها ذميمةً
و تضرّ إذا ضرّتموها فتضرم

[٢] الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، مطبعة دار الكتب، ١٩٢٨ م.

[٣] الألويسي، بلوغ الأدب، مطبعة دار الكتاب الحديثة.

[٤] أبو تمام، ديوان الحماسة، مختصر شرح التبريزي، مطبعة محمد علي صبيح و أولاده، ١٩٥٥ م.

[٥] ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ.

[٦] إمرو القيس، ديوان، تحقيق د. محمد رضا مروة، الدار العالمية، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤١٣ هـ. ١٩٩٣ م.

[٧] الأعشي الكبير، ديوان، شرح د. محمد أحمد قاسم، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤١٥ هـ. ١٩٩٩ م.

[٨] أوس بن حجر، شرح د. محمد يوسف نجم، دار صادر، الجامعة الأمريكية، الطبعة الثانية، بيروت، ١٣٨٧ هـ. ١٩٦٧ م.

[٩] البستاني، فؤاد إفرايم، المجاني الحديثة، دار المشرق، الطبعة الرابعة، بيروت، ١٩٩٣ م.

[١٠] تآبط شراً، ديوان، إعداد طلال حرب، الدار العالمية، الطبعة الأولى، بيروت- لبنان، ١٤١٤ هـ. ١٩٩٣ م.

[١١] الحطيئة، ديوان، شرح د. يوسف عيد، دار الجيل، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤١٣ هـ. ١٩٩٢ م.

[١٢] حماسة البحترى، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٦٧ م.

[١٣] دشتي، محمد، نهج البلاغة، انتشارات آل علي (عليه السلام)، مطبعة بمار، الطبعة الثانية، ١٣٨١ هـ.

[١٤] الريشهري، محمد، العلم والحكمة في الكتاب والسنة، دار الحديث الثقافية، قم المقدسة، الطبعة الأولى، ١٣٧٦ هـ.

فأصبح يجري فيهم من تلادكم

مغانم شتّى من إفالٍ مُزْتَم

(المصدر نفسه ٧٩-٨٠، البستاني ١/٨٥).

نتائج البحث

١- إن الحكمة كانت ثابتة ماثوثة في ثنايا الأدب الجاهلي، بما تحمله من معانٍ أخلاقية وإصلاحية، و ترددت أشعار كثيرة مفعمة بالحكمة عند فريق الإصلاح و التزعة الإنسانية من شعراء الجاهلية أمثال لبيد بن ربيعة و زهير بن أبي سلمى و أوس بن حجر و ... الذين جندوا شعرهم و حكمتهم لإصلاح الواقع و تخليصه من مثالبه مكرّسين في شعرهم مفاهيم و قيم العدل و الإيثار و الحلم و الميل إلى المسالمة و كشفوا عما يحمله الظلم و البغي و القسوة و الحرب من نتائج وخيمة على الفرد و المجتمع، وعلى الحاضر و المستقبل، و على الظالم و المظلوم.

٢- ينقل الشعراء الجاهلي فضائل أهل الجاهلية و مثلهم العُليا كما ينقل مثالبهم و ما اتّصف به العربيّ الجاهلي من تعسّف و سفه و غلظة و ... و يظهر لنا مباحة العربيّ الجاهلي بالفضائل و مدى تعلّقه و إعجابه بالحكمة و الحلم و العدل، بل إن الدعوة في الأدب الجاهلي إلى هذه الفضائل تكاد تغلب دعوات التطرّف و القسوة و حبّ الإنتقام و قد إنعكس هذا الأمر جلياً في أشعارهم.

٣- إن الحكمة اتّخذت جانباً متألقاً في شعر بعض شعراء الجاهلية، و تشير إلى أنّهم كانوا أصحاب رسالة و أصحاب رؤية، وأنّ الشعر ليس ترفاً و جدانياً فحسب، وإنما بصرّ عقليّ و دأب فنيّ، و رسالة إنسانية.

المصادر و المراجع

[١] القرآن الكريم

- [١٥] الزبيدي، محب الدين، تاج العروس، تحقيق: عبد الستار فراخ، وزارة الإرشاد والأبناء الكويتية، مطبعة حكومة الكويت، ١٣٨٥هـ.
- [١٦] الزمخشري، محمد بن عمر، الكشاف في تفسير القرآن، دارالمعرفة، بيروت.
- [١٧] زهير بن أبي سلمى، ديوان، شرح د. عمر فاروق الطباع، دارالقلم، بيروت- لبنان.
- [١٨] الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، منشورات جماعة المدرسين، قم المقدسة، الطبعة الخامسة، ١٤١٧هـ.
- [١٩] الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن الكريم، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- [٢٠] طرفة بن العبد، ديوان، شرح د. عمر فاروق الطباع، دارالقلم، بيروت- لبنان.
- [٢١] الطائي، حاتم، ديوان، د. عمر فاروق الطباع، دارالقلم، بيروت- لبنان.
- [٢٢] الطوسي، التبيان، تحقيق أحمد حبيب قصير العاملي، مكتبة الأمين، النجف الأشرف، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ.ق.
- [٢٣] الشريف المرتضى، أمالي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دارإحياء الكتب العربية، ١٩٥٤م.
- [٢٤] عامر بن الطفيل، ديوان، رواية أبو بكر محمد الأنباري، دار بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ. ١٩٨٦م.
- [٢٥] عبيد بن الأبرص، ديوان، شرح أشرف أحمد عدرة، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤١٤هـ. ١٩٩٤م.
- [٢٦] فضل الله، محمد حسين، أسلوب الدعوة في القرآن، دار الملاك للطباعة و النشر، بيروت، لبنان، الطبعة السادسة، ١٤١٨هـ.
- [٢٧] فضل الله، محمد حسين، الحكمة في خط الإسلام، بيروت، لبنان، مؤسسة الوفاء.
- [٢٨] قيس بن الخطيم، ديوان، تحقيق د. ناصر الدين الأسد، دار صادر، الطبعة الثانية، بيروت، ١٣٨٧هـ. ١٩٦٧م.
- [٢٩] ليلى بن ربيعة، ديوان، تحقيق د. احسان عباس، الكويت، ١٩٦٢م.
- [٣٠] المفضل الضبي، المفضليات، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٢٠م.
- [٣١] ميرزا، علي أكبر، نهج الفصاحة، نشر تشاف، قم، ١٣٨٥هـ.ش.
- [٣٢] النويري، نهاية الأرب، وزارة الثقافة، مصر، ج٧.

گرایش‌های حکمی در شعر جاهلی

غلامرضا کریمی فرد^۱، امید جهان بخت لیلی^۲

تاریخ دریافت: ۱۳۸۸/۵/۳۱

تاریخ پذیرش: ۱۳۸۹/۲/۱

واژه «حکمت» در ۲۰ مورد از آیات قرآن وارد شده و بیانگر یکی از الطاف خداوند نسبت به بندگانش است. از این روست که وقتی جنبه‌هایی از «حکمت» نزد یک شاعر پدیدار می‌گردد، کلام را قدرت‌تأثیر و نفوذ می‌بخشد. حضرت رسول اکرم (ص) فرموده‌اند که: «حکمت گمشده‌ی مومن است» پس مومن در جستجوی اوست.

نگارندگان در این پژوهش، پیرامون حکمت در شعر جاهلی به بحث پرداخته و پاره‌ای از این گونه شعر را که برخوردار از مضامین حکمی بوده و بیانگر فضایل مردان آن روزگار است، بررسی نموده‌اند. حکمت در شعر جاهلی حاصل تجربه‌ی شخصی و برگرفته از رویدادها و تعاملات محیطی پیرامون شاعر است. این گونه شعرها معمولاً دارای معانی ساده، روانی الفاظ و متانت سبک‌اند.

واژگان کلیدی: حکمت، شعر جاهلی، گرایش‌های انسانی.

۱. استادیار دانشگاه شهید چمران اهواز

۲. دانشجوی دکتری دانشگاه شهید چمران اهواز